

موضوعات فن الترسل الموحد

أبو الفضل بن محشرة البجائي أنموذجا.

Topics of the art of the Apostles

Abu al-Fadl ibn Muhsara al-Bajai is a model.

كاملة مولاي¹، المركز الجامعي عبدالحفيظ بوالصوف ميلة، الجزائر

Kamla Moulai, University Center Abdelhafeez Boualouf Mila, Algeria

kamlamoulai20@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2019/03/01

تاريخ الإرسال: 2018/11/30

ملخص

نشأ فن الرسائل نشأة قديمة العهد، أفردت لها مميزات مستقلة من عصر لآخر مع تلاقحها في نقاط ما، لا يمكن أن تكون في نوع واحد، وأدب الرسائل لم يغيب عن الساحة الأدبية الجزائرية القديمة، فبرزت عصور كانت الأرقى في هذا الفن، ولعل العصر الموحد من أكثر العصور احتضاناً لهذا اللون النثري. وأبو الفضل بن محشرة البجائي كاتب جزائري أثبت حنكته وخبرته وكيفية مساهمته في تأطير الأدب الجزائري القديم المستقل من خلال رسائله التسع، والتي تنوعت مضامينها وطريقة تأليفها، والرسالة المدروسة هي رسالة تتميز بخصائص أدبية تعبر عن الواقع المعيش، وتبرز طبيعة المرء واتجاهاته القومية والدينية.

الكلمات المفتاحية: أدب جزائري قديم؛ البجائي؛ بناء؛ رسالة؛ لغة؛ مضمون.

Abstract

The art of letters originated in an old age, with distinct features from one era to the next with its convergence at certain points. It can not be in one type, and the literature of the letters has not disappeared from the old Algerian literary scene. The era was the finest in this art. The most erotic ages of this prose color. Abu Al Fadl bin Mahshara Al-Bajai is an Algerian writer who has proven his talent and experience and how he contributed to the framing of the old independent Algerian literature through his nine letters, the contents of which varied and the way of its authorship.

Keywords: Ancient Algerian literature; eloquent; construction; letter; language.

¹ المؤلف الرئيسي: كاملة مولاي، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف - ميلة، الجزائر

مقدمة

الجزائر أمة عربية إسلامية تريد الحفاظ على وجودها وتطمح لامتلاك أدوات التطور من ميزانها الحضاري، لا غنى لها عن عنصر التراث الأدبي بكل ألوانه ووسائله التعبيرية؛ وقد انتشر عرف أدب الرسائل عبر عصوره المختلفة وازدهر وتطور حسب ما تتطلبه طبيعة الحياة في أي فترة، ثم إن الأدب الجزائري قد حفل بهذا اللون وامتزج بتطلعات كتابه، إذ جعلوه مادة أدبية قابلة للدراسة وأفردوا له قواعده وخصائصه المستقلة بذاتها دونما الخلط بينه وبين أي جنس نثري آخر.

1. الأدب الجزائري بعد الفتح الإسلامي:

شهدت الآثار الأدبية الموجودة في المكتبات الوطنية والعالمية على قيام أدب جزائري مستقل أبداع فيه الأدباء و الأمراء، فعرف على أنه "التراث اللغوي والأدبي من المنظوم والمنثور الذي أنتجه الأبناء الأصليون المنتسبون لإقليم الجزائر المعروف بحدوده السياسية منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني"¹. وفي الفترة الممتدة من عهد الفتوحات إلى عهد سقوط الدولة العثمانية تميز الأدب الجزائري بألوان عديدة وأجناس مختلفة حفلت بها كل دولة لأنه كما هو معروف أن الجزائر تعاقب على حكمها عدة إمارات حملت قوالب فكرية وثقافية متنوعة، ونظرا لكثرة إماراتها الرسمية، الموحدية، الزيانية، سنقتصر على دولة واحدة هي الدولة الموحدية وسنهتم في هذه الورقة العلمية بالكتاب: أبو الفضل بن محشرة البجائي، وأدب الرسائل في هذه الدولة.

1. الدولة الموحدية:

تعد الدولة الموحدية أهم الدول في تاريخ في تاريخ الأدب الجزائري، إذ مثلت فترة الحكم فيها فترة لامعة تعاقب على حكمها مجموعة من الخلفاء أنشئوا علاقات وأواصر مختلفة، توصلوا من خلالها مع دول عديدة ونظراء لهم وعمال وطلبة وحتى مع شعب أمتهم. وقد قامت هذه الدولة على "يد المهدي بن تومرت، لكنه توفي بعد مدة قصيرة بعد توليه الحكم لتتنقل الأوامر إلى عبد المؤمن بن علي"²، وكانت مدينة بجاية عاصمة حكم الدولة الموحدية، وقد تميز الحكام في هذا العصر ببصيرة فذة في تسيير شؤون الحكم وحسن المعاملة ودعم الشعب، وفي ظل هذه الدولة كانت آخر معارك بني هلال في الجزائر وانتهت خلافتها على يد الدولة الحفصية، ببرزقائدها أبو زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص³. ويقول المبارك الميلي أن فترة الموحدين هي فترة أمن وعدل، شهدت نشاطا اقتصاديا.

الحياة الأدبية والفكرية في الدولة الموحدية:

اشتهر الموحدون بصفة عامة والسلطين بصفة خاصة بتلقي الأدب وتلقيه فنشروا العلوم الإسلامية والفلسفية والتفسير في الحديث والقرآن وتطرقوا لعلم الكلام والفقه، والتزموا بالدقة والبحث وعدم الاكتفاء بالموجود فكانت علومهم قائمة على أساس الدين، فأنشئوا كل ما تتطلبه الحياة العلمية والأدبية حتى ييسروا أخذ العلوم والآداب، كالمدارس والمساجد والمكتبات والمعاهد وأصبحت بجاية منارة العلوم والأدب وعرفوا فنون النثر والشعر بأغراضها وألوانها فاشتهرت عندهم الرسائل الديوانية والإخوانية⁴.

اهتم سلاطين الدولة الموحدية كثيراً بالعلم والمعرفة وخاصة القرآن وعلومه، كما ظهر اهتمامهم البالغ بالبحث والتعلم من خلال تشييد المدارس والمكتبات والمساجد، وهذا ينم على مدى تعلقهم بالثقافة والاطلاع، وهي دولة عرفت فن الرسائل "وسبب اهتمام الدولة بالإبلاغ والإعلام لاتساع رقعتها والتنقلات التي يقوم بها الحكام"⁵، وقبل الخوض في التعرف على الكاتب أبي فضل بن محشرة البجائي، سنتقدم بمفهوم الرسالة، وأهم من كتب الرسالة في العصر الموحي.

مفهوم فن الترسل :

الرسالة من الأجناس الأدبية المعروفة في النثر العربي، تندرج ضمن دائرة التعبير عن الذات وتبليغ ما في النفس وهذا ما كانت العرب تتقن إجادته بما يتناسب مع صفاء ذهنهم وسلامة طبعهم، وقد تحدثت المعاجم اللغوية عن معنى هذا الجنس في طياتها.

1. المفهوم اللغوي:

يقول صاحب البرهان: "الترسل من ترسلت أترسل ترسلًا، وأنا المترسل كما يقال: توقفت بهم أتوقف توقفًا، وأنا متوقف ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرر فعله في الرسائل ويقال: أرسل إرسالًا وهو مرسل، والاسم الرسالة، أو راسل يرسل مراسلة وهو مراسل وذلك إن كان هو ومن يرسله قد اشتركا في المراسلة، وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يرسل به من بعيد، فاشتق له اسم الترسل والرسالة من ذلك"⁶. من هذا المفهوم يمكن أن نستخلص أن الرسالة تقوم على ثلاثة عناصر من دونها لا تسمى رسالة وهي: المرسل، الرسالة والمرسل إليه. والرسالة مشتقة من الترسل، ويسمى باعثة الرسالة مرسلًا أو مراسلًا أو مترسلًا.

2. المفهوم الاصطلاحي:

الرسالة وسيلة للتعبير وجسر التواصل بين الأفراد، وهي جنس أدبي التفت إليه الأدباء والنقاد القدامى واهتموا بتأطيره، يقول أبو هلال العسكري: "الرسالة جنس يشترط فيه الجودة والإتقان لأنه يقرأ ويتأمل"⁷؛ أي أن الرسالة لها معايير أسلوبية على الكاتب الالتزام بها كالجودة في التعبير وإتقان الألفاظ وحسن تخيرها، ذلك أن المتلقي يدركها من خلال قراءتها لها وتأملها. وقد اشتملت الرسالة منذ القدم على خصائص فنية راقية تؤهلها للدراسة، ذلك لأنهم صنفوها كجنس أدبي نثري له معايير محددة كما له تقنياته الخاصة به والقائمة على فن الأسلوب التي من بين خصائصها: أناقة اللفظ وجزالة التعبير وحسن التركيب.

ثانياً: أنواعها:

تحدثت المؤلفات على أنواع من الرسائل وأشارت إلى: الرسائل الإخوانية أو الأهلية، الرسائل الديوانية أو الرسمية، الرسائل الأدبية، ورسائل المزاجية.

1. الرسائل الديوانية:

ارتبطت الرسائل الديوانية بالسياسة، احتفظت بها المصادر لأنها تشهد أحداث سياسية وهي "ما تصدر عن الدواوين أو ترد إليها خاصة بشؤون الدولة تيسيراً للعمل وتثبيتاً للنظام العام ويغلب هذا النوع الدقة والسهولة في التعبير والتقيد بالمصطلحات الحكومية والفنية والمساواة في العبارة والبراءة من التهويل والتخيل"⁸ مثل لهذا النوع

العصر العباسي كونه عنصر سياسة بامتياز، إن الرسالة الديوانية وثيقة رسمية تسهل الحياة السياسية يمكن أن نلخص خصائصها من خلال القول السابق في النقاط التالية:

- سهولة الألفاظ ودقتها.
- الالتزام بمصطلحات الحكومة.
- التنسيق بين معاني العبارات.
- تفادي أساليب التهويل وتجنب الخيال المفرط.

2. الرسائل الأهلية:

الرسائل الأهلية وتسمى أيضا الإخوانية يتبادلها إخوان عاديون تربط بينهم علاقات أخوة، أو صداقة، إذن فهي مرتبطة بالمشاعر الإنسانية بعيدة عن الجانب السياسي، يتحدث شوقي ضيف في معناها قائلا: "هي رسائل تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف وتهنئة وثناء أو تعزية"⁹، هكذا جمع شوقي ضيف كل المشاعر ولأحاسيس المتبادلة في الرسائل الإخوانية بين الأفراد.

3. الرسائل الأدبية:

أما الرسائل الأدبية فيعرفها أنيس مقدسي بأنها: "رسائل طوال يكتبها البلغاء يسجلون فيها خواطرهم ويدنون آراءهم فيما يعني لهم من شؤون الاجتماع والفكر والأدب لإعلانهم تأييد مذهب معين"¹⁰. من خلال هذا القول نستخلص أن الرسالة الأدبية لها خصائص أسلوبية محددة وهي: الطول والبلاغة أما كتابتها فليس بالعادي فعليه أن يتوفر على فكر وأدب، يريد بها توجيه رأي أو خاطرة كما أنه من خلالها يبين مذهبه. وخلافا للألوان السابقة ذكر النقاد نوعا آخر وهو رسائل المزاجية والتي سنتعرف من خلال طرحها، والتي تخالف الرسائل الأخرى من حيث الأسلوب والطريقة والمضمون.

4. رسائل المزاجية:

لمح أبو الهلال العسكري إلى نوع من الرسائل يكون بين أشخاص أدنى مرتبة إلى الأشخاص الأعلى مرتبة، قائلا: "فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإن سبيل ما كان واقع منها في إنهاء الأخبار وتقرير صور ما يلونه من الأعمال"¹¹، ونستخلص من هذا القول أن هذا النوع من الرسائل مثلا من عامل إلى حاكمه، أي من المرؤوس إلى رئيسه، وهي كل رسائل تخالف الرسائل الديوانية والرسائل الوجدانية من حيث الأسلوب مع مراعاة المرسل والمرسل إليه، وهذه أن الرسائل لها تسمية أخرى وهي المكاتبة العامة، وهي ثلاثة أنواع:

- من رئيس إلى مرؤوس = رسائل ديوانية.
- من نظير إلى نظير = رسائل إخوانية ومن الممكن أن تكون أدبية.
- من مرؤوس إلى رئيس = رسائل المزاجية من مضامينها: مناجاة الرسول، والتهاني، الإغاثة.

ثالثاً: أقلام الترسل في الدولة الموحدية :

برزت كوكبة لامعة في هذا المجال من أرقى رجال البلاط إلى أبسط طالبي العلم. ولم تقتصر كتابة الرسائل على الخليفة فقط. بل كان له الفضل في تشجيع طلبة العلم أبرزهم : أبي جعفر بن عطية ، أبي الحسن بن عياش أبي القاسم القالمي ، أبي عقيل عطية بن عطية ، أبي الحكم بن عبد العزيز بن المرخي ، أبي الفضل بن محشرة البجائي. بالتالي فالعهد الموحي هو عصر ثقافة ونهضة أدبية بارزة شكلت نقطة انعطاف في الأدب الجزائري ورسمت صورة واضحة لأبرز الآداب والفنون¹².

الكاتب أبو الفضل بن محشرة البجائي هو الشخصية التي سنركز عليها في بحثنا و على إحدى رسائله التسع ، فمن هو أبو الفضل وماذا جاء في مضمون رسالته.

1. التعريف بأبي الفضل بن محشرة البجائي :

هو أبو الفضل بن محمد علي بن طاهر بن تميم القيسي، المعروف بابن محشرة، ولد (1135م-540 هـ) وتوفي عام (1202م-598 هـ) كان أبوه قاضيا ببجاية فنشأ فيها و درس على يد علمائها، ثم استدعاه الخليفة أبو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى حاضرة مراكش، ولما وصل إليها اتخذته الخليفة كاتب سره وبقي فيها إلى وفاته. كان أبو محشرة كاتباً متمكناً من المعرفة، بحيث أن الخليفة لما اطلع على ما عنده من علم و الكتابة استدعاه من أجلها إنما هي بعض صفاته وقد أثبت له صاحب مجموع رسائل موحدية تسع رسائل من إنشائه¹³.

كتب البجائي تسع رسائل طوال تعد فن الرسائل في ظل الدولة الموحدية لها سماتها الخاصة، ومميزاتها المنفردة من حيث اللغة التي كتب بها أو المواضيع التي تناولتها وحتى الوجهات التي أرسلت إليها. ما يمكن أن نقوله أنه في العهد الموحي بلغت الكتابة الديوانية مبلغاً عظيماً تجلت في تصورات البجائي وألفاظه وتراكيبه .

2. الرسائل البجائية لغتها ومواضيعها :

تندرج رسائل البجائي التسعة ضمن الرسائل التي بلغ عددها سبعة وثلاثون رسالة في عهد المؤمن وولديه. تبرز امتداد النفوذ الموحي وعلاقاته مع الدول المجاورة ، كما أنها تكشف جانباً من شخصية الفرد الموحي وموروثه الثقافي والفكري ومدى حضوره في قيام أدب مستقل.

المتتبع و المرتب لمضامين رسائل البجائي يلحظ تطور فن الرسائل في زمنه كما تكشف مواضيعها عن تطور الدولة الموحدية؛ من خلال ما يسجل عن الحرب وعن سمو الأفكار في عهد الخليفة المؤمن و ابنه من بعده ورسائل البجائي لها سماتها من حيث اللغة والمواضيع. البجائي ذو ثقافة راقية وخلفية معرفية لا يستهان بها، اغترف من أرقى العلوم والآداب. لغة الرسائل كثيفة ومعانها متنوعة فالإقتصار عليها في هذا البحث راجع إلى أهميتها اللغوية والأسلوبية فكان لزاماً التوقف عندها وتتبع مشاربها الثقافية، احتوت الرسائل على ألفاظ ومصطلحات دينية مثل : (رعاكم الله ، أعزهم الله ، وفقكم الله)، كما ضمنت ألفاظاً مؤثرة نحو : (تقواه ، بشراه)، كما أن الكاتب استعمل كلمات صعبة الفهم مثل قوله : "...ونبذوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضهم وقضيضهم نفرة من أنبت عن الوطن ، ونبذ علق المسكن والسكن..."¹⁴

إن هذا المقطع من الرسالة فيه من الألفاظ الغريبة التي لم نعهدها، هي قديمة تعبر عن معناها في زمنها الذي وجدت فيه. أما ما يتعلق بالمضامين فقد اختلفت باختلاف الأشخاص الموجهة إليهم. وإنه يمكن حصر المرسلين والمتلقين في قوله: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة"¹⁵ انحصرت شخصيات الرسائل التي كتبها البجائي في السلاطين والولاة، والخلفاء ورجال الدولة والعلماء والأدباء والطلبة.

اتسمت رسائل ابن محشرة البجائي بالطابع الديني الإسلامي، تبعث لأغراض متعددة أحيانا بغرض النصيح والإرشاد نحو التمسك بالعلم وأحيانا أخرى من أجل الهداية للتمسك بتقوى الله والتمسك بالدين الإسلامي، كما أن ابن محشرة تطرق في جل رسائله للحديث عن الأوضاع السياسية للبلاد وعن الغزوات والجهاد. والملاحظ عند إطلاعنا على رسائله أنه يمكن لرسالة واحدة أن تشمل على مواضيع عدة بالرغم من تصنيفها في نوع واحد مثلا: الرسالة السادسة والعشرون هي رسالة ضمنت حديثا عن النصيح والإرشاد نحو قوله: "نوصيكم بتقوى الله"¹⁶، وأيضا قوله محرضا على حماية الدولة ومتحدثا عن الفتوحات: "وحرصوا على أن يكون لهم في نصر هذا الدين (...)، وعرفوا أن الغرض فيهم إنما هو الروم الذين في جزيرة الأندلس"¹⁷، هذه الرسالة من رسائل المزاوجة بعثت من مسؤول راق إلى أحد إطارات الدولة.

وتبين لنا من خلال قراءتنا لهذه الرسائل أن أبا محشرة على إطلاع واسع وذي ثقافة إسلامية وأدبية متنوعة، يستطيع من خلال أسلوبه التأثير بقوة على نفسية المتلقي خاصة أنها محملة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكذلك الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

3. موضوعات وأفكار الرسالة:

يعد البناء النصي من أهم العناصر المشكلة لبناء النص الإنشائي، وجعلها تفيد في الربط بين أجزاء النص، خاصة أن النص الإنشائي يعتمد على الاستقلالية في الألفاظ، والرسائل البجائية تحيل داخليا لتربط لغوي واضح وقريب بسبب قرب الموضوع من الكاتب أي غرض إنشاء هذه الرسائل.

ولعل المتأمل في هذه الرسائل يجد أن مقدمتها وخاتمتها نص واحد متماسك، وكما سبق لنا الذكر أن الرسالة تكتب خصائصها الفنية من بنيتها الفنية والشكلية، كذلك كان الحال بالنسبة لهذه الرسائل التسعة، والتحليل التالي يقدم رسدا للأقسام الثلاث المشكلة لبنية الرسائل.

(أ) **عرض الرسالة:** وهي الرسالة السادسة والعشرون في كتاب لافي بروفنصال والجدول التالي يشير إلى كاتب الرسالة والامر بكتابتها والجهة المرسل إليها.

1. بنية المقدمة وموضوعها:

المُرسل إليه	المُرسل	كاتب الرسالة
الطلبة الموحدين والشيوخ والأعيان والأكفاء في مدينة قرطبة	أمير المؤمنين أو الخليفة الموحدي	أبو فضل بن محشرة البجائي

من خلال الجدول نستشف تعددا في الجهة المرسل إليها وأن الرسالة لم تقتصر على شخص بحد ذاته، فمن خلال ذكره للطلبة والشيوخ والأعيان والأكفاء نستخلص أن الرسالة اشترك فيها مجموعة من الأشخاص اختلفت مكانتهم العملية إلا أنها لم تخرج عن إطار التعليم، نحو قوله: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيده الله بنصره، وأمهده بمعونته - إلى الطلبة والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة"¹⁸.

أيضا: استهل الكاتب رسالته قائلا: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيده الله بنصره، وأمهده بعونه - إلى الطلبة والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة، أدام الله كرامتهم بتقواه، وأطلع عليهم وفوده بشراه - سلام عليكم ورحمة الله وبركاته"¹⁹.

إذن فهي رسالة غير مبتورة كونها تبتدئ بالصدر ومعنى ذلك أن المكتوب له والمكتوب إليه قد حددا، كما أن الكاتب ألحقها بدعاء لأمير المؤمنين وفي هذا تعظيم لشأنه إعلاء لمقامه وفرض لهيبته في نفس المتلقي، أي متلقي الرسالة وليس القارئ أو المطلع عليها ثم إن عدم إهماله للدعاء للطلبة والجهة المرسل إليها عندما قال: "أدام الله كرامتهم"²⁰، أظهر لهم مدى الاهتمام بهم وأبرز لهم مكانتهم في ظل الدولة الموحدية العظيمة فبالرغم من بعدهم مكان إقامة صرح الدولة الموحدية وهذا ما دللت عليه كلمت - قرطبة - إلا أن وجودهم فيها أهم شيء ومن خلال دعائه ذكر جنبا من محاسنهم الخلقية وهي الكرم ليختتم حديثه بتحية الإسلام العطرة.

ولينتقل في حديثه يستعمل كلمة - أما بعد - كعنصر انتقال لكنه انتقال في الحديث وليس انتقال من المقدمة لصلب الموضوع وهي مفارقة لما ألفته الرسائل ومتعارف عليه في عهود سابقة، فيقول: "أما بعد إننا نحمد إليكم الله"²¹ الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه ونصلي على محمد نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم والحمد لله (...)"²² فهو يكثر أو بالأحرى يسهب في تضمين الرسالة بالدعاء ويردف الحمدلة والصلاة على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وهذا تأكيد على ما ذكر سابقا على أنها رسالة بعيدة عن البتر.

والملاحظ أيضا الحديث بصيغة الجمع نحو: "إننا نحمد إليكم الله"، هو اعتبار لمكانة الخليفة التي تعد فوق مستوى المخاطب (المرسل إليه)، زيادة على هذا فإن أبا الفضل قدم صفات يمدح فيها الخليفة، فأطال في مدحه حتى كاد هذا المدح يطغى على موضوع الرسالة نحو: "وأيده من نصره، بما يضمن اه عادة الأعداء والإظهار ويبوئه ميوأ الصدق من الاستيلاء والغلبة (...)"، وتظهر آيات الله فيه لائحة لذوي الأبصار، (...)"، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله مجاهدا أهل الأعراض، المحيي سنة الله تعالى (...)"، ووارث مقامه العظيم، المخلد شرفه عاليا باقيا يرث الله أكلا الأعمار"²³، فهو حديث مطول عن صفات الخليفة نحو: الصادق،

المجاهد، المقيم لأوامر الله أي المطيع، الشريف، المسيطر القوي وهذا دليل على القدرة البلاغية والحضور الذهني لكتابنا، إذن يمكن أن نلاحظ أن مقدمة الرسالة الأولى يتخللها الطول، وتظم عناصر إبداعية مختلفة الألوان.

2. بنية المضمون وموضوعه:

يظهر موضوع الرسالة باتصال واضح مع مقدمتها إذ نجد البجائي يدخل في صلب الحديث عن مضمون الرسالة للفتة: "وكتابنا إليكم".

وفي هذا المقام تنبيه إلى المرسل إليه أن المؤلف سيخبره ما الغرض من إرسال رسالته إليه، ويلحقها بالدعاء لهم نحو: "كتب لكم الله من أقسام السعادة والبشائر المعادة ما يخلص إلى قلوبكم بطيب مسراه ويحيكم وافده بما يجيئكم به الله"²⁴، وفي هذا الأمر نية حسنة بالتمني الخير لهؤلاء المستقبلين ذاكرًا مدينة - تونس - التبعة للدولة الموحدة في هذه الفترة، ثم نجده يحدد الموضوع بكلمة: "نوصيكم بتقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه والشكر له سبحانه أولاً وأخراً على ما أولى أولياء أمرهم معونة"²⁵، فالسبب في كتابته إليهم هو توصيتهم بطاعة الله والتوكل عليه والأخذ بما أوصانا به وشكره على نعمه التي يعيشون فيها ويحسون بها ذلك أنه المسبب لهم فيها، وتمسكهم بمبادئ الإسلام هو ما يمكنهم من التقرب لله عز وجل، وهذا يجعلنا نتساءل عن الغاية من هذه التوصية: هل رأى الخليفة تقصيرا من قبل طلابه وعلمائه في طاعة الله؟ أم هي تذكير لزيادة التقرب من الله وحرصا منه على التحكم في زمام الأمور قبل ضياعها وخوفا عليهم من الانشغال بحياة الترف ونسيانهم لذكر الله؟ لذلك كان حديثه في أجزاء من الرسالة إجابة عن السبب قائلا: "والله سبحانه يوزعنا أن نشكر فضله الجزيل، ويلهمنا من محامده الجامع البليغ الحفيل بمنه وعرفتم فيها البركة والتسهيل والخيرة التي جمعت لهم النجاح الميسر للجميع"²⁶.

فيتجلى من توصية الخليفة في رسالته هذه أنه ما بعث بها إلا لتذكيرهم بخيرات الله عز وجل حتى لا ينسوا فضله عليهم، ويكثروا شكره على نعمه غير أننا باستكمالنا لتحليل الرسالة نلاحظ دخول موضوع آخر حديث الكاتب ضم الفتوحات والغزوات التي قام بها الموحدون لإعلاء راية الإسلام أي أنه تحدث عن جانب من السياسة وهي تبين لهم جانباً من المسؤولية والمهام التي يجب عليهم مراعاتها اتجاه دولتهم ودينهم، كما تظم نوعاً من التهنية على فوزهم ونجاحهم في غزواتهم التي هدفت إلى نشر ثقافتهم وإثبات حضورهم، يقول البجائي: "...ما سعى في هذه الوجهة الميمونة، والفتوح الجليلة التي تجاوزت مدى الإفهام، (...) إلى هذه الجهات الساحلية بعد الغزوة المباركة التي أعلى بها الله منارة الإسلام والإيمان"²⁷.

فهو حديث عن أهمية وعظمة هذا الفتح وقيمته بالنسبة للدولة الموحدة لينتقل بقوله: "وحرصوا على أن يكون لهم نصر في هذا الدين ما كان لسلفهم القديم من الآثار الكرام، (...)، وبين لهم أنهم استقبلوا هذا الغرض الحميد"²⁸.

وفي قوله هذا تأكيد على ما يقدمونه من تضحيات لأجل الدين، وهو أمر محمود يجازى عليه صاحبه سواء أمام الله أو من عند الخليفة، كما تفصح هذه الرسالة عن القيمة الكبرى التي يتبوؤها هؤلاء الشيوخ الشيوخ

والعلماء والطلبة والموحدون بصفة عامة في بلاط الدولة الموحدية لقوله: "وعجلنا إليكم البشرى، لتعلموا أنكم لم تعملوا عن الخواطر والأفكار، وأن جهاتكم لم يشغل عنها شيء من شواغل هذه الأقطار، وأنكم معتمدون أبدا من العناية، والرعاية، بما يعود عليكم بتبليغ الأوطار"²⁹.

وهو موضوع آخر ضمن هذه الرسالة فهو يخبرهم من خلالها أنه لا يغفل عن رعيهم، ويحرص على الاهتمام بأمورهم وتيسير الأمور لهم حتى يسهل عليهم نيل مرادهم.

في الأخير يمكن تلخيص موضوع الرسالة والقول أنها لم تكتف بالحديث عن موضوع واحد بل أدرج ضمنها مواضيع مختلفة يمكن لنا إجمالها كالتالي :

- الإعلام بأخبار الغزوات والفتوحات : فهي تصور لنا جانبا من جانب من حدة الدولة الموحدية في قضايا الجهاد والتسلط .
- الثناء على الطلبة والشيخ والعلماء والجهة المرسل إليها: فهو يؤكد من خلال رسالته هذه على مدى اهتمامه بهم ويبين لهم مكانتهم الاجتماعية بالنسبة للدولة .
- الحرص على طاعة الله وإظهار ما من الله به عليهم: فالخليفة يشدد على ضرورة التمسك بمبادئ الإسلام وعدم إنكار نعم الله عز وجل على عبده.

3. بنية الخاتمة وموضوعها:

نلاحظ أيضا أن خاتمة الرسالة مرتبطة بمضمونها وكأنها توصية شاملة لما سبق ذكره في مضمون الرسالة، كما أنها اشتملت على تاريخ كتابة هذه الرسالة، ووردت بلغة عميقة ترسخ في بال المتلقي وأسماعه يقول: "واجعلوا حديثا في قلوبكم واسماعكم ، واعقدوا بشكر الله على ما منح بها معاهد أنديتكم واجتماعاتكم، والله يوليكم من رحمته، ونعمته، ما يعم به ملاكم ويكرم به متبواكم، بمنه، لاريغيره، وهو حسبنا نعم الوكيل والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. كتب منتصف شهر شوال سنة ست وسبعين وخمسائة"³⁰.

فقد تضمنت خاتمة الرسالة عبارات مركزة أكد الخليفة من خلالها تمسكه بطاعة الله عز وجل، كما ألمح لضرورة التميز بهذه الصفة وكانت خاتمة كلامه دعاء خير لهؤلاء المتلقين، ونلاحظ أيضا أنه استوقف حديثه بتحية الإسلام: "والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، كما ترك تاريخا يشهد على أيام طرحه لهذه الرسالة وهي من أهم الخصائص التي تكتسبها رسائل الخليفة.

خاتمة

- كان هذا مجمل الرسالة الأولى وما تضمنته من معان، حيث اتسمت بالبسط والتطويل.
- تميزت الرسالة بخصائص مستقلة فهي تحمل بناء الرسالة الديوانية.
- أخذت طابع التوسع والتفصيل وانتهت إلى شكل الإنشاء من حسن البلاغة والسبك والأداء.
- تبرز الرسالة الاتجاه القومي والديني للمرء فكان التحفظ الإسلامي بارزا بوضوح.

الهوامش:

- ¹ تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الميلي الجزائري، تق: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دط)، 1986، ص45.
- ² ينظر عصر الدول والإمارات، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا والسودان، شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا والسودان، دار المعارف، مصر، ط1، (دت)، ص48.
- ³ المرجع نفسه، ص49.
- ⁴ مبارك بن محمد الميلي الجزائري، مرجع سابق، ص305.
- ⁵ رسائل موحدة جديدة، أحمد عزاي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، المغرب، ط1، 1995، ص15.
- ⁶ البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ، تج: حنفي محمد شرف، دار الصحوة، القاهرة، (دط)، 1929، ص153.
- ⁷ الصناعتين، أبو هلال العسكري، ، تج: مفيدة قميحة، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط1، 1981، ص228.
- ⁸ فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، حمد مسعود جبران، ، المضامين والخصائص الأسلوبية، ليبيا، المجلد 1، ط1، 2004، ص103.
- ⁹ تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ، دار المعارف، القاهرة، ط16، 2004، ص491.
- ¹⁰ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس مقدسي، ، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1982، ص151.
- ¹¹ أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص157.
- ¹² ينظر مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، لافي بروفنصال، ، دار النجاح، الرباط، المغرب، ط1، 1941، ص121-153.
- ¹³ إرشاد الحائر على آثار أدياء الجزائر، أو الأدب الجزيري عبر النصوص المرتبة ترتيبا من الفتح العربي إلى عصرنا، دار البصائر، الغوثي بن حمدان، ، الجزائر، (دط)، ص312.
- ¹⁴ لافي بروفنصال، مصدر سابق، ص162.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص169.
- ¹⁶ نفسه، ص180.
- ¹⁷ نفسه، ص180.
- ¹⁸ نفسه، ص162.
- ¹⁹ نفسه، ص162.
- ²⁰ نفسه، ص162.
- ²¹ نفسه، ص163.
- ²² نفسه، ص162-163.
- ²³ نفسه، ص163.
- ²⁴ نفسه، ص164.
- ²⁵ نفسه، ص164.
- ²⁶ نفسه، ص165.
- ²⁷ نفسه، ص166.
- ²⁸ نفسه، ص168.
- ²⁹ نفسه، ص169.
- ³⁰ نفسه، ص169.